الفصل الثاني عشر

الاتصال الأعظم (الوحي)

obeikandl.com

obeikandl.com

الاتصال الأعظم (الوحي)

كل حديث عن الوحي لن يتعدى ذكر الوقائع والمشاهد والأحداث الثابتة فقط، فلا تحليل ولا توقعات ولا اجتهادات في شأنه؛ لأنه أمر غيبي لا مجال لأي مخلوق أن يضيف فيه أو ينقص، فالخالق قد خلق وقدر وأراد وشاء وحكم ولا معقب لحكمه، قضي الأمر وانتهى، فوجد الإنسان نفسه ماثلًا أمام عالم شهادة يستطيع استكشافه مع الزمن، وعالم غيب يستحيل عليه، والغيب ليس عدمًا لمجرد أن الإنسان لا يعلمه، وحتى يؤمن الإنسان بالغيب الذي لا يصل إليه بحال، أذن الله لبعض الحقائق من علم الشهادة أن تكون غيبًا مؤقتا يكتشفه الإنسان بالعلم بفضل ما وهبه الخالق من عقل وبصيرة ليصبح جزء من عالم الغيب المؤقت نفسه شكلًا خاصًّا من أشكال الشهادة بمواصفات معينة، وعليه فالنفوس المدركة لعالم الشهادة، عليها أن تقبل بالغيب وبالمنطق نفسه الذي تقبل به الوجود لأشياء تعلمها شهادة دون أن تحسها بمداركها، بل أكثر منها من موجودات لا تعلمها إلا غيبًا، وهذا الغيب الوجودي للأشياء الحقيقية هو بذاته حقيقة وجودية لا جدال فيها أبدًا.

وقبل الحديث عن الوحي لا بد أن نحدد نقطة الانطلاق الصحيحة إلى فهمه، فنحن هنا أمام أمر غيبي بحت، لا يخضع لشيء من قوانين الأرض ولا نواميس الحياة الدنيا المألوفة ولا لبراهين المنطق البشري، فإذا كان لديك تصور مسبق بأننا سنتحدث عن الوحي هنا بالطريقة التجريبية الحسية، وبالبرهان والمنطق كي نلبي تطلعات خيالك المتعطش للوصول إلى تصور خاص بك قد رسمته مسبقًا في ذهنك الضيق عن كيفية نزول الوحي، وتريد منا محاكاته، وكأننا نختبر الوحي، ونكشف أسراره معتمدين على الميكروسكوب لمعرفة الدقائق، أو التلسكوب لمعرفة الأباعد، أو على نظريات الفيزياء وسرعة الصوت وسرعة الضوء، وانكساراته والموجات الكهرومغناطيسية، والجاذبية والحرارة والبرودة والضغط الجوي والتنفس والأكسجين، أو ما ترتب على ذلك من اكتشافات علمية متقدمة، كالهاتف والفاكس والإنترنت والتلكس، إذا كان هذا تفكيرك الذي لا تقبل الحديث عن الوحي إلا على ضوئه، فأنصحك أن تريح نفسك من عناء

قراءة هذا الموضوع، وأن تنتقل فورًا إلى الفصل المقبل، علمًا أن الأمر ماضٍ علينا وعليك وفق ما قدر له، وليس متوقفًا على قناعاتك الخاصة به من عدمها، ولكنك ستكتشف في نهاية المطاف حاجتك إلى الإيمان بهذا الوحي كما نزل مهما كانت كيفيته المغيبة عنا وعنك، على أنه من أمر ربي وربك، وأنه لا محيص لك ولا مهرب من قبول هذه الحقيقة.

ولأنك مؤمن تؤمن بالقدرة اللامحدودة لله خالق كل شيء، ولاسيما وأنت تردد يوميًّا وصف الخالق ﷻ بأنه: (على كل شيء قدير)، وتعني بذلك أنه قدير على خلق كل شيءٍ لا نعلمه، ولا ندرك قوانينه ونواميسه، ولا نحصرها، فهذا هو المدخل الصحيح لفهم الأمور الغيبية عامة والوحي خاصة، ومن ثم تستطيع مواصلة القراءة هنا، ويكون أمر الوحي قد اتضح لك مجملًا من بدايته، وانتهى الأمر بمجرد استحضارك لعظمة الخالق القادر على كل شيء؛ لأن كل حديثنا عن الوحي سيكون في إطار التذكير بمن يتصف بالقدرة المطلقة، التي أوجد بها الوجود كله بما فيه قوانين الأرض، ولا يعجزه أن يوجد غيرها من قواعد وأنظمة وقوانين ونواميس أخرى لا نهائية في عوالم أخرى غير متناهية أيضًا، والاحتمالات للذهاب في كل اتجاه نعلمه أو لا نعلمه، أو ممكن أن نعلمه، أو ممكن ألا نعلمه أبد الآبدين، لكننا متشوقون لشتى المعارف عند لقاء ربنا، ولذلك كان لزامًا علينا التزود بالإيمان بالله، وبما أنزل للوصول إلى هذا المنتهى المعرفي الجميل الذي تنكشف لنا فيه الحقائق، يقول (يوهان فيتشة)[1]: «إن معرفة الوحي انطلاقًا من مبادئ العقل النظري مستحيلة، لكنها ممكنة انطلاقًا من قوة الشوق؛ أي الإيمان بعقيدة ما»[2].

ليس بالضرورة أن تكون هذه الأقدار المقدرة من القادر على كل شيء مطابقة ولا مشابهة ولا مقاربة لقوانين الحياة الدنيا وعالمنا المشهود، ولا حتى تصوراتنا وخيالاتنا:

(١) يوهان فيتشة Johann Gottlieb Fichte (١٧٦٢- ١٨١٤م) الموافق (١١٧٦- ١٢٢٩هـ) فيلسوف المثالية الألمانية المنبثقة من مدرسة الفيلسوف الألماني الشهير (إيمانويل كانت) يُعدّ العقل هو جوهر الوجود وله دراسات عميقة في الوعي الذاتي وله مساهمات سياسية أسهمت في نشوء القومية الألمانية: (Stanford Encyclopedia of Philosophy).

(٢) فلسفة الدين مجموعة من المؤلفين بإشراف علي عبود المحمداوي مقال: (كانت: من العقل الخالص إلى الإيمان الخاص) للكاتب : محمد المصباحي نقلًا عن مقالة فيتشة في (نقد الوحي)، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، ص٦٧.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] وكلما تسرب إلى تفكيرك التعجب من أخبار الغيب مقارنة بالمألوف، تذكر أنك أمام أمر الله وكفى، إنه الأمر الذي أجابت به الملائكة زوجة إبراهيم (سارة) عليهما السلام، عندما قابلت الخبر غير المألوف دنيويًّا بقولها متعجبة منه: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ [هود: ٧٢] قالت ذلك عندما بشرها الله بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، فلم يجيبوها على استفسارها بنعم، بل قفزوا إلى الاعتراض على تعجبها من ذلك، فكان ردهم: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هود: ٧٣].

وهكذا لا يبقى للإنسان سوى تناول الوحي فقط من زوايا التعريف به دون الغوص في أسراره الغيبية التي عليه أن يؤمن بها مسلمًا ومصدقًا لخبر السماء، وهذا الموقف منه لا يتعارض مع جهود من يتناول أمر الوحي من زوايا معرفية تقليدية، مثل تعريفه اللغوي بأنه (الإعلام السريع الخفي)، وأن أنواعه المستنبطة من معاني القرآن إما أن يكون إلهامًا فطريًّا للموحى إليه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] أو إلهامًا غرائزيًّا للكائن الحي: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النحل: ٦٨] أو ما يوحيه الله إلى ملائكته: ﴿(١١) إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [الأنفال: ١٢] أو حتى وسوسة الشياطين فيما بينهم التي تسمى وحيًا: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٢١] ونحو ذلك من تفاصيل بحثية توجد غالبًا في كتب تتناول موضوع الوحي من زوايا تختلف عما قصدنا توضيحه هنا من أن الوحي نفسه هو ناموس غيب رباني نستقبله دون أن ندرك كيفية نزوله، ويجب على الإنسان أن يؤمن به وفق التعريف الاصطلاحي له، أي إنه إعلام الله لأنبيائه بما يريد أن يبلغه عباده من وحي أو كتاب بواسطة أو بغير واسطة، وتبقى كيفية نزول الوحي وتفكيك مراحله وفهم عجائبه والاطلاع على أسراره، من علم الغيب الذي أصبح الإيمان به من مناط الابتلاء والامتحان الغيبي، ولن يستقر هذا الإيمان به إلا بعد استيفاء ثلاث مراحل أساسية هي:

المرحلة الأولى، الإيمان المطلق بالله وجودًا وقدرة وأسماء حسنى وصفات عليا، ومن آمن بأن الله على كل شيء قدير، آمن بأن الله لا يعجزه شيء على الإطلاق، وأن

أمر الوحي يسير على من خلق السماوات والأرض، وأن خلقهما أكبر من خلق الناس وأنبيائهم والوحي، كم هو ضروري أن نفهم فهمًا جيدًا هذه العبارة المتكررة في القرآن، آيات تتلى في ختام صلواتنا اليومية: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

والمرحلة الثانية، أن الوحي بالجملة والتفصيل سيبقى من علم الغيب الذي لا يخضع مطلقًا للقوانين الطبيعة الدنيوية المتعارف عليها، فلا يمكن أن يصل العلم الدنيوي إلى فك شفرات غموضه وأسراره الغيبية أبدًا، وهذه مشيئة الله وأمره وقدره وحده لا شريك له سبحانه.

والمرحلة الثالثة، أن الوحي نفسه عظيم إلى درجة أنه يوجب الإيمان بأن الرسول المبلغ عن الله ما هو إلا مجرد وسيط أمين وناقل مبلغ عمن هو أعلى منه مقامًا، ويبلغ الوحي بأمانة وصدق مطابق لما يمليه عليه الوحي، وهو خائف أشد من خوفنا من مرسلها ﷻ، ووجل من سيده الأعظم الذي قال له: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٧] وقال له أيضًا: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥] لقد شاء الله، واختار، وقدر أن يكون هذا هو الوحي، وأن يكون التبليغ بهذه الطريقة، ولو شاء، وقدر غيرها لكان ذلك وهو يحكم ويختار سبحانه ولا معقب لحكمه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

*****

الوحي فرع عن الإيمان بالله

لا فائدة من الدخول في أي نقاش جدلي حول حقيقة الوحي قبل حسم القضية الأولى، وهي تأكيد الإيمان المطلق بالله تعالى، فإذا حُسمت الأولى فقد حُسمت الثانية والثالثة والمئة والألف تبعًا لها، هذا ما يجعل تكرار التذكير بهذه الحقيقة الضرورية، ضرورة في كل فصل من هذا الكتاب؛ لأننا لا نستطيع المضي قدمًا في جميع الموضوعات المتناولة من أمور الغيب دون اصطحاب هذا الإيمان المنقذ والاستظلال بظله عن وهج

الحيرة والتيه الموحشة في هذا الوجود، إنك عندما تؤمن بالله، وتؤمن بصفاته الكمالية المطلقة، ومنها أنه القدير القادر، فأنت تقر بأنه يفعل كل شيء لا تستطيع أنت فعله، بل ولا تتخيله أو تتصوره، وأنه لا يعجزه شيء يعجزك أنت فعله، ولا ينتظر قَدَرَهُ تكليفًا ولا إذنًا من أي ذي شأن سواه في الوجود، لا بد أن يستقر هذا في القلب بعيدًا عن الفلسفة والمنطق وعلم الكلام والسفسطة البشرية.

إذا لم تنطلق من هذه المنصة الإيمانية الصلبة قبل التطرق إلى أي شأن غيبي، فلن تصل من خلال العقل وحده إلى شيء يطمئنك في أمور الوحي قطعًا، فإيمانك بالله سابق على إيمانك بالوحي منه، وإذا لم يكن إيمانك بالله وفق الصفات الكمالية المطلقة مستوعبًا معانيها ودلالاتها الباهرة، فأنت لا تؤمن حق الإيمان بالله خالقك وخالق عقلك الذي تفكر فيه وخالق الكون الذي تعيش فيه، فإذا أدركت قدرة الله من عظمة ما قدره وخلقه من حولك لما تعرف وما لا تعرف من الموجودات، هنا فقط سيسهل عليك فهم نواميس أسرار الغيب كلها ومنها الوحي، وستتقبلها وتتلقاها بقلب مقبل غير مدبر، مطمئن غير خائف، وحينها ستقف عند حد التعريف المفعم بالإيمان والتسليم بأن الوحي إرادة الله واختياره وأمره، وأنه تنزل بالكيفية التي اختارها الله القادر على كل شيء أيضًا، فمن أوجد هذا الوجود، وأداره، وقدره بهذا الإحكام لا يعجزه أن ينزل وحيًا وكتابًا، ويختار رسولًا، بل هذا أهون عليه بكثير، وعلى هذا التسليم الحق قام الإيمان في أسمى درجاته وأولاها.

*****

نزول الوحي من علم الغيب

ابتداء الوحي ومضمونه واصطفاء الرسل الذين يوحى إليهم والكيفية التي يتنزل بها الوحي كله من أمر الله وإرادة الله ومشيئة الله وحده لا شريك له، وليس لنا معشر البشر منه شيء سوى التسليم، ولأنه خارق للمألوف والمعتاد، فمن الطبيعي أن تستقبل خبر الوحي بشيء من التعطش الخاص لمعرفة ما وراء هذا الغيب، وهذا الشعور

مني ومنك أمر طبيعي جدًّا، كما أسلفنا من قبل وليس جديدًا على بني جلدتك، فقد عجب من الوحي أمم ممن قبلنا لأنهم أخضعوا ناموس الوحي الغيبي لقوانين الدنيا المحسوسة، فوقعوا في الحيرة والبلبلة، فقالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص: ٨] فاستغربوا كيف ينزل الذكر من الله إلى رجل من الناس، دون أن يستحضروا قدرة الله ومشيئته واختياره في ملكه، التي منها أنه اصطفى من الناس رسولًا، وأرسله نذيرًا بالذكر لمن يتقيه من عباده لكي يدخله في رحمته، فما العجب؟ وجميع هذه المعاني اختصرت بخطاب بلاغي عجيب في هذه الآية الكريمة التي قال فيها نوحٌ لقومه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣] وسيبقى كل تعجب وتساؤل أمرًا طبيعيًّا ما لم يقصد منه مقدمة لتبرير الكفر والجحود والإنكار، كما حصل مع بعض ممن ضلوا عن سواء الصراط.

ليس لنا من علم الوحي إلا ما أخبرنا عنه ربنا فقط، والإيمان المطلق بالوحي والتصديق به والتسليم بكل كيفية نزل بها وتقبله، كما جاء من الله العظيم، مخرج آمن وخيار أوحد ينجو به المرء من ظلمات إخضاعه لمدارك الناس المحدودة وعقولهم وأحاسيسهم القاصرة عنه وعما سواه من الغيبيات، ولا شيء أخطر على الإيمان بالوحي من إخضاعه خطأً لعالمنا المحسوس وقوانين الطبيعة، وحيث إنه لا مجال لإدراكه عقليًّا ولا حسيًّا، فسيجد الإنسان نفسه وفق هذا المنهج الخاطئ حائرًا؛ لأنه لم يستوعب كيفية نزوله عقلًا، فتنبعج به الأفكار والخيالات عشوائيًّا في كل اتجاه، وهنا يجد الشيطان مداخله بالوسواس؛ لأنه لا يريد منك أن تصل إلى الحق والحقيقة، فتستسلم لله مؤمنًا به ومصدقًا لرسله ووحيه، يحزنه جدًّا أن تعلنها صريحة مدوية، ويجب عليك أن تقولها دائمًا هكذا كما أرشدك القرآن الكريم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] بهذه الكلمات الصريحة يكون إيمانك بالوحي سهلًا سلسلًا مطمئنًا مريحًا، هذا هو المدخل الآمن والوحيد لفهم الوحي والإيمان به، دون أن يجد المرء في نفسه متكلفًا أي حرج في ذلك، ومن ثم يمكننا الانطلاق من هذه القاعدة الإيمانية إلى أي تفاصيل أخرى ترسخ إيماننا بالوحي وغيره.

أما إذا أخبرنا الله عن كيفية ما عن حقيقة هذا الوحي فالإيمان بها من الإيمان بالله في حدود ما يمكننا فهمه وإدراكه، لقد أخبرنا ربنا ﷻ أن للوحي ثلاث مراتب: الأولى هي الوحي المجرد، وهو ما يصل إلى قلب الموحى إليه دون شك منه بأنه من الله، والثانية هي الإيحاء مباشرة ومن وراء حجاب: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾ [البقرة: ٣٧] ومرتبة ثالثة هي الوحي بواسطة الملك ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١] والمرتبة الأخيرة هي التي تنزل فيها القرآن الكريم كله، وحيًا منزلًا من عند الله وفق نواميس وأقدار ربانية، يستحيل تصورها كيفًا، ولكن لا يستحيل الإيمان بها عقلًا ممن يؤمنون بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤].

إن لك أيها الإنسان، مجالًا في هذا الوجود لن تتجاوزه، وقدرةً لا تطيق ما زاد عنها، وموعدًا مع الله لن تُخلَفه، وأنك لم توجد لكي تعلم أو تدرك ما لم تكن مخلوقًا للعلم به أو إدراكه، ولأنه لا يوجد إنسان يستطيع إدراك الوحي بوسائل الحس المادية، فقد توقف العقلاء وحكماء المفكرين والفلاسفة حائرين عند مواجهتم لحقائق فوق قدراتهم البشرية، ولا يمكن التوصل إلى فك أسرارها دون تدخل من الوحي، لكن المسلمين وبسهولة توصلوا إلى أنه لا يمكن تفسير أسرار (الوجود) ونواميس هذا الكون إلا من خلال بوابة الإيمان بالله القوي القادر، وتصديق خبر السماء الواصل إلى الناس عن طريق الصّدّيقين الأنبياء، واعتبار ذلك هو المدخل، بل هو الأصل في التوصل إلى معرفة ما فشلت فيه المحاولات البشرية المتتابعة عن طريق الاستقراء والبرهان العقلي وحده من قبل آلاف المتميزين والأذكياء، الذين لم يتركوا فكرًا ولا وسيلة علمية إلا وسلكوها منذ خمس مئة عام قبل ميلاد المسيح عليه السلام وإلى يومنا هذا، فلم يصلوا إلى شيء سوى كم هائل من الاحتمالات والفرضيات التي يتقاذفها المعترضون عليها نقدًا في بعض الأحيان ورفضًا تامًّا في أحيان أخرى.

*****

الرسل وأمانة التبليغ

من أهم أسباب اضطراب الإيمان بالوحي أن يتصور الإنسان أمرًا عظيمًا وصفه الله بقوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] تصورًا قاصرًا، وكأنه مجرد تواصل بين طرفين متكافئين، كالتراسل البريدي والبرقي بين الأصدقاء أو حتى الاتصال بين أعظم ملوك البشر وأدنى الناس في مملكته، بينما كيفية تنزل الوحي أمر عظيم يفوق تصوراتنا ومداركنا، وعظمة الوحي وعلو مقامه يعكسه الدور المحدد لكل نبي مبلغ، إذ يقتصر دورهم على تلقيه بكيفيةٍ شاء الله ألا نعلمها، وتبليغه بلغة مفهومة بلسان قومه، ثم يقوم بتفعيله عمليًّا بإعطاء القدوة من سيرة النبي المبلغ الخائف المشفق من ربه.

والأنبياء هم الوسطاء المتفرغون تمامًا لهذه المهمة العظيمة والمؤتمنون عليها بين الله وخلقه، إنهم لا يحققون من وراء ذلك هدفًا سياسيًّا، ولا مكسبًا ماديًّا ولا موقعًا اعتباريًّا خاصًّا، قد توحد شعارهم على التوحيد الخالص لله والاستقامة إليه واستغفاره: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦] فالرسل وإن كانوا سادة عباد الله إلا أنهم عبيد مخلصون لله، يأتمرون بأمره، وينتهون عند نهيه، أفنوا أعمارهم في التبليغ، أذلة على المؤمنين رحماء بينهم، أعزة على الكافرين أشداء عليهم، هكذا وصفهم القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

إنها مشيئة الله وقدره وقدرته أن خلق الناس ومن رحمته أنه أرسل إليهم رسلًا تترى، يقيمون أمور الناس في الدنيا الفانية كي تستقيم حياتهم الأبدية في الآخرة الباقية، لا يفكرون في مصالحهم الذاتية في الدنيا، فهل سمعت أن رسولًا قد أقام لنفسه مملكة أو إمبراطورية، وأورثها ذريته من بعده، كسروية كانت أم قيصرية؟ فالأنبياء كلهم من أدنى الناس بمعايير الدنيا المادية وزخرفها، منهم الحداد والنجار والصانع وراعي الغنم، وظيفتهم الأساسية هي التبليغ تحت مرأى ومسمع الوحي الذي يربيهم، ويوجههم، كما قال الله لموسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

*****

الرسل وجدال قومهم

بالتأمل المتعقل الهادئ، سندرك أن الله قد قدر لنا أسهل وسيلة لتلقي رسالته ووحيه باختيار الأفضل من البشر والإيحاء إليهم ليبغلوا قومهم بلسانهم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤] فالمؤمنون بهم تلقوا الرسالات بالقبول والتسليم، بينما انبرت فئة رافضة للحق ليس إنكارًا له وإنما استكبارًا وعلوًّا وعتوًّا كبيرًا، فتقدموا بطلبات لا تنتهي، ولا ينتظرون تأويلها ولا تنفيذها، بل كانت لذات الجدل والعبث، فقالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: ٢١] وتلك حالة لا يمكن وصفها إلا بما قال الله عنهم في ختام الآية: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢١] وقالوا أيضًا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞ﴾ [الأنعام: ٨] فردّ عليهم القرآن، مستنكرًا عليهم كيف يطلبون الأشد لبسًا وتعقيدًا، وقد جاءهم بشر مثلهم بلسانهم: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

ولم يقف أهل الجدل عند هذا الحد، بل طلبوا أن تفجر لهم الأرض ينابيع، وأن يكون للنبي جنة فيها الماء يتفجر أيضًا، وأن يأتي لهم بالله ويأتي بالملائكة، أو يسقط عليهم السماء، أو يرقى في السماء، ثم قدموا تكذيبهم له قبل أن يفعل فيما لو فعل من منطلق تحديهم، فقالوا: لن نصدقك حتى تأتي بكتاب يثبت أنك صعدت إلى السماء! طلبات مفتوحة ليس الهدف تحقيقها، وإنما إشغال الموقف بالجدل، قال تعالى في وصفهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعٗا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٣] فكان الجواب لهم هو الإعراض والاكتفاء بهذا الرد: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٣] إذ كيف يستغرب عاقل أن يرسل رب البشر إلى البشر بشرًا مثلهم، ثم يطلبون ملَكًا من غير جنسهم؟ فلو كان أهل الأرض ملائكة يمشون عليها كما يمشي الناس، لكان رسولهم ملكًا من جنسهم أيضًا، قال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٥].

لِمَ كل هذا الجدل والحيرة من أمر الوحي؟ كان يكفيهم استحضار حقيقة أن الأمر كله لله، فهو الذي يصطفي من الناس رسلًا، وجميعهم مثلنا بشر لم يكن أحد منهم ليعلم أنه سيكون رسولًا أو نبيًّا عند ولادته حتى يأتيه الوحي في مراحل متأخرة، فيما عدا عيسى عليه السلام أن تكلم وهو في المهد، وتلك معجزة استثنائية من معجزات الكون التي لا تخضع لقانون ولا منطق دنيوي أن يتكلم المولود في يوم ولادته، أما ما سوى ذلك فبشرية الرسل قائمة قبل الوحي وبعده، فرجل مثل محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، الذي عرف بهذا الاسم قد بلغ الأربعين من عمره دون أن يعلم أنه سيكون محمدًا رسول الله ﷺ، والوحي لما نزل عليه لم يكن إشعارًا ولا محاورةً ولا إخبارًا، بل كان تنزيلًا وتكليفًا عظيمًا، خاف من الموقف المفاجئ في أول الأمر، فهرع إلى بيته يقول: **دثروني زملوني**، هذا هو الوحي الذي أول من خضع له هو النبي نفسه؛ كي يقتدي به أتباعه ومن بعدهم، فيخضعون جميعًا لله الواحد القهار، فيصطفّون خلف نبيهم متوجهين إلى الله الذي يقول لرسوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

*****

مغالطات المشككين في الوحي

من طبيعة الإنسان السليم أن يتلقى الخبر بالتصديق أو التكذيب أو التوقف بحسب الأدلة والبراهين والمنطق السليم، ولكن أن يكون الإنسان متوترًا من كل ما هو وحي، فيجعل الأصل نفيه إلا أن يثبت له وفق أدلة تعجيزية يفرضها، ويرفض نتيجتها مقدمًا، فهذا خلل في ميزان تصحيح الأخبار وقبولها، لقد أخبرنا الله عن نوع غريب من البشر ليسوا باحثين عن حق ولا متلمسين لحقيقة بل هم جاهزون لرفض كل حجة وبرهان حتى لو مكنهم الله من الصعود إلى السماء، وفتح لهم بابًا فيه إلى ما وراءه، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥] فلا تنتظر من هؤلاء موقفًا منصفًا من خبر السماء، وكن واثقًا مطمئنًا بالحق الذي تحمله، ولا تكترث بما قد تسمع من وجود من

يشكون ويشككون في الرسالات عن سبق إصرار بالرفض، وخاصة بنبوة محمد ﷺ، أو بثبوت القرآن ممن يطلقون على أنفسهم مفكرين أو مستشرقين أو علماء حضارات.

يجب أن تحترم أيها الإنسان، عقلك قبل أن تطلب من الآخرين ذلك، حافظ على كيانك ومقامك وشخصيتك المعتبرة، فاختر لنفسك الموقف والقناعة المنسجمة مع طمأنينتك دون الالتفات إلى الآخرين، لا تكن إمّعة يستخف بك كل ساقط ولاقط، عليك أن تفعّل عقلك الذي وهبك الله، ففكر به وتأمل جيدًا، ولو فتشت عن حجج هؤلاء المشككين لما وجدت معهم شيئًا يستحق الاهتمام سوى النفي بلا برهان، إننا نعرف القرآن جيدًا، ونعرف إعجازه، ونعرف النبي الذي أنزل عليه القرآن، ونعرف صدقه، فهل يريد المشككون أن يخبرونا عن (محمد) الطبيب وعالم الوراثة، وقد حرم القرآن الزواج من أقرب الأقارب الأم والبنت والأخت والعمة والخالة، متطابقًا مع ما توصل إليه العلم الحديث من خطورة ظهورالأمراض الوراثية من زواج الأقارب، التي تختفي تمامًا مع الابتعاد عن الأقارب، وتظهر اليوم بنسبة أكبر من أقرب نقطة مباحة، أي زواج بنت العم الواقفة على الحد الفاصل وراثيًا! ولا يعني هذا ربط النص بالعلم مطلقًا، بل الأصل الرجوع إلى النص عند التعارض لأنه أبقى بينما العلم يتغير؟! وما المؤهلات العلمية التي - بحسب زعمهم - جعلت (محمدًا) يخاطبنا بهذا النص المرصوص رصًّا لفظًا ومعنى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣] إن لم يكن ذلك وحيًا منزلًا من ربه ﷻ؟!

هل يريد المشككون أن يحدثونا عن (محمد) الاقتصادي والقانوني، عندما نجد في القانون التجاري الحديث أن الأعمال التجارية تثبت بجميع طرق الإثبات من إقرار وشهادة وقرائن ومحررات عرفية أو رسمية ودفاتر تجارية، ولا يشترط فيها الكتابة لحاجة الناس إلى المرونة بالتعامل السريع بالرضا والثقة، مقارنة بالأعمال المدنية التي توجب

القوانين كتابتها، لقد نزل الوحي قبل مئات السنين من سن هذا القانون العالمي، يلزم الناس بإثبات القضايا المدنية كالدين بالكتابة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] بينما يكون أكثر مرونة في الأعمال التجارية، فيعفيهم من الكتابة حتى لا تتعطل التجارة السريعة، فيتعثر الاقتصاد: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة: ٢٨٢] أليست هذه قواعد عامة ونصوصًا في القانون المدني والقانون التجاري العالمي اليوم يحدثنا عنها القرآن قبل أن يتقدم من يُسمَّى اليوم العالم المتقدم، وقبل أن يعرف الناس الفرق بين القانون المدني والقانون التجاري؟!

هل يريد المشككون أن يحدثونا عن محمد الفلكي، عندما يجتمع أشهر علماء الفلك يحاولون تفسير نشوء الكون، فلا يصلون إلى أكثر من نظرية الانفجار العظيم التي افترضوا فيها أن الكون يتمدد منذ انفجاره الأول منبسطًا كأنه صحيفة، وأن تمدده سيصل إلى نهايته، ثم يبدأ ينكمش مرة ثانية، فينتهي العالم إلى نقطة البداية، وقد يكون القرآن سابقًا في توضيح هذه النظرية أكثر مما توصلوا إليه، وذلك قبل ولادة هؤلاء العلماء وولادة آبائهم وآباء آبائهم لعشرين جيلًا أو أكثر والوحي يتنزل وفيه: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] علمًا أننا لا نجزم بمطابقة هذه النظرية ولا أي نظرية علمية مستحدثة لنص قرآني محكم، فالنص ثابت راسخ مع الزمن، والعلم يتجدد ويستدرك عليه، وهذه الظاهرة الكونية قد تكون متوافقة إلى حد كبير مع مفهوم النصوص حتى الآن، والله تعالى وحده الأعلم.

وهل يريد المشككون أيضًا أن يقنعوا ذوي العقول السليمة، وهم يرون البشرية جمعاء تتنافس لتخترع الساعة بحجمها الصغير جدًّا، وتتصارع كبرى الشركات العالمية للوصول إلى أكثر الساعات دقة وصلاحًا، ومع ذلك إخفاق متواصل بدليل وجود ملايين محالّ الصيانة والضمان للساعات، وأعمار أرقى وأحكم ساعاتهم المبتكرة أقصر بكثير من عمر الإنسان القصير أصلًا، بينما القرآن المنزل على محمد الأمي يخبرنا عن حركة هذه الأجرام السماوية الهائلة المنتجة للزمان بدقة متناهية بحركتها ودورانها،

فالأرض تدور حول نفسها بساعة زمنية في غاية الدقة، ولا يرد فيها الخلل مطلقًا على الرغم من ضخامتها الهائلة، بل الشمس والنجوم والمجرات الأضخم منها بكثير تسير هي الأخرى في مسارات زمنية لا تتقدم، ولا تتأخر أبدًا، كلها تجري حولنا بحسبان دقيق لا تتقدم جزءًا من الثانية، ولا تتأخر، وكل هذا يحدث في الوجود بلا متابعة ولا ضمان ولا صيانة، وهذا خبر حق بلغه لنا النبي محمد عليه الصلاة والسلام، عندما تلا علينا قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

ليعلم المشككون في الوحي أننا نتحدث عن أمر تتصاغر أمامه كل الموجودات والأفكار والخيالات، ومقامه أعلى شأنًا من مقام النبوة، بل النبي نفسه محتاج إلى الوحي وإلى التثبيت بالوحي أكثر من غيره، شاء الله تعالى بحكمته البالغة أن يكون سيد الأولين والآخرين أميًّا لا يعلم شيئًا من المعارف المتميزة قبل النبوة، فلا علم له بالتاريخ، ولم يسمع بقصص من كان قبله، ولا علم له بالجغرافيا والمحيطات وظلماتها والقارات ومتاهاتها، ولا الرحلات الاستكشافية والإبحار، والتجارب العلمية، ولم يكن شاعرًا ولا كاهنًا، فأوحى الله إليه من الأخبار والحقائق والنصوص والبلاغة ما شاء سبحانه، وقصّ عليه من القصص ما يثبت به فؤاده، وما لم تكن معروفة عنده ولا عند قومه قبل الوحي، بل لم تكن معلومة عند أهل الكتاب في حينه.

قص الوحي عليه قصة أبناء يعقوب الأحد عشر الذين اجتمعوا ليمكروا بأخيهم النبي يوسف عليه السلام، ثم قال لرسوله في ختامها ممتنًّا عليه بهذ الخبر: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢] وقص عليه قصة موسى مع صاحب مدين، وما حصل من سقيا البنتين ثم زواجه من إحداهما التي جاءته تمشي على استحياء لتقول له: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ﴾ [القصص: ٢٥] فمكث في أهل مدين، ثم ما حدث له بعد أن سار بأهله، ورأى نارًا في الوادي ليجد عندها النداء والوحي من جانب الطور إلى نهاية القصة، ليخاطب الله النبي ﷺ في ختامها بهذه الآيات التي تقشعرّ منها جلود المؤمنين إعجابًا وإكبارًا وإيمانًا واستسلامًا: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ

مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٤- ٤٦]. ثم قص عليه قصص آل عمران وخلافهم حول مريم ومن يكفلها، وقال له بعدها: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤] وهكذا كلما أخبره الله بغيب لم يكن معلومًا عند البشر جميعًا كان ذلك منّة من الله تعالى ليس عليه فحسب بل عليه وعلى قومه، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩]. فيا أهل العقول والحِجا، كيف مع هذا السياق الباهر لكل عقل يكون القرآن من تأليف محمد كما يزعم الأفّاكون المفترون من مشككين ومستشرقين؟ أما نحن فنقول: آمنا به كلٌّ من عند ربنا، والمنّة من الله علينا، أن هدانا للإسلام، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا سبحانه.

*****

المشككون وصخرة العقل!

رفقًا بعقولنا وأفهامنا وآدميتنا يا أيها العابثون بالحقائق الغيبية، لم يكن في مكة جامعات علمية ولا مراكز بحوث فلكية أو جغرافية ولا مراكز طبية عندما نزل الوحي فيها، فمن أين أتيتم بشبهاتكم المزيفة؟ أمثلة كثيرة يستحيل حصرها تدحض كل شبهة تشكيك في الوحي والنبوة، يستحيل معها أن يكون (محمد) الأمي مصدرًا لتلك المعلومات الكونية والأخبار والأنباء التي بهرت العالم اليوم من تلقاء نفسه دون تدخل الوحي مباشرة، حقيقة مدوية رغمًا عن أنف كل مكابر وحاقد بعدما يزيد على ألف وأربع مئة عام، ولا تزال النبوة معجزة معلوماتية وعلمية يقف لها إجلالًا كل عاقل مستبصر، وربي، إننا بوصفنا مسلمين مع كثرة استهدافنا من سهام الأعداء أصبحنا نبالغ في التنزل للخصم في الجدال بلا حدود ولا ضرورة أحيانًا، وما ذاك عن حاجة إليهم ولا زهدًا منا بأغلى ما نعتقده من دين عظيم عليه نحيا وعليه نرجو أن نموت،

وإنما طمعًا في هداية هؤلاء الضالين ونجاتهم لأنفسهم، وأما من هداه الله منا للحق فلن يضره بعد هداية الله له ضلال الضالين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

فتوكل على الله يا عبدالله، واعلم أنك على الحق المبين، وعليك بنفسك أولًا، ثق بربك وبدينك، بل ثق بعقلك الراشد، ولا تلتفت إلى ما يثيره المستشرقون والمشككون حول أصول ديننا وثوابته ومقام ربنا ونبينا وقرآننا، لقد قال آباؤهم من قبل بكل غطرسة وصدود: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦] فإذا علمت بهدف مشروعهم ابتداء وهو التشكيك واللغو والبلبة، فلا يستخفنونك، واصبر لوعد الله الحق، وانتظر: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠] وواصل السعي الحثيث إليه، مستأنسًا بحال الرسول ﷺ الذي ما فتئ قومه يثبطونه باتهامهم له بالكهانة والجنون، فجاءته المؤازرة والدعم القوي من القوي العزيز ليمضي قدمًا في رسالته، ولا يتلفت لأحد من المخذلين: ﴿ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴾ [الطور: ٢٩].

ثم تذكر أيضًا أن من عقلاء المستشرقين من جاؤوا ليشككوا المسلمين في دينهم، فلما وصلوا إلى صفاء المنبع، اصطدمت عقولهم بالحق، وأظهر الله لهم دينه على الدين كله، وما كان أمامهم إلا أن يسلموا ويحسن إسلامهم[1]، وهذه نتيجة طبيعية لذي العقل السليم إذا واجه نصوص الوحي وحقائقه التي تطابق عقله السوي وفطرته، وذلك هو دافع الدمع الذي سال من أعين القسيسين والرهبان الذين سمعوا الوحي من محمد ﷺ، فعرفوا أنه الحق، فآمنوا، وسألوا الله أن يكتبهم مع الشاهدين على هذا الحق الذي وجدوه، فأثنى عليهم القرآن بآيات تتلى إلى يوم

(١) هناك عدد كبير من المستشرقين الذين قادهم البحث إلى الحق مثل المستشرق السويسري (جون لويس بوركهارت) الذي اعتنق الإسلام عام ١٨٠٩م وغير اسمه إلى إبراهيم والمستشرق الفرنسي (الفونس دينيه) الذي أسلم في الجزائر عام ١٩٢٧م وتسمى بناصر الدين وحفر قبره بنفسه في الجزائر وأوصى بدفنه فيه في أي مكان أدركه الموت فنقل من باريس إلى مقبرة الجزائر و(ليبولد وايس) الذي أسلم أواخر القرن التاسع عشر وغير اسمه إلى (محمد أسد) الذي أثرى مكتبة المسلمين بكتب قيمة في مقدمتها كتابه الشهير (الطريق إلى مكة) وغيرهم.

القيامة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٢- ٨٣].

*****

أرقى مشروع تربوي

لو أن جميع علماء التربية في العالم وعبر التاريخ اجتمعوا، فألفوا كتابًا تربويًّا متميزًا، وبقي هذا الكتاب مئة سنة وهو مرجع لكل معلم دون أي تعديل عليه، كيف سيكون مقام ذلك الكتاب في نفوس الناس؟ فما بالك إذًا بكلام خالق كل شيء بمن فيه هؤلاء التربويون وعقولهم التي فكروا، وألفوا بها كتابهم، كيف سيكون مقام كتابه هو وكلامه ﷻ في نفوس الناس الأسوياء، والحقيقة أن المقارنة هنا لا تجوز ولا تقبل؛ لأنه لا أقوم من هذا القرآن ولا أسمى منه هداية، ومن أعظم نعم الله على الإنسان بعد خلقه أن تواصل معه مباشرة بالوحي عبر الأنبياء وبالأخلاق العظيمة للأنبياء وفي مقدمتهم محمد بن عبدالله ﷺ، الذي كان خلقه ترجمة عملية للقرآن (كان خلقه القرآن)، ومن أجمل ما يرد في الخطاب القرآني أنه لم يكن صادمًا ولا مفاجئًا ولا متعارضًا مع الفطرة البشرية، بل راعى جزءًا كبيرًا من تدرج عادات الناس، ومن ثم أخذ بأيديهم في غاية الرفق والشفقة، إلى التي هي أحسن من القول والعمل، ولو تأملنا منهجية الخطاب القرآني في بناء الإيمان ابتداء ثم العمل بحسب طبيعة مرحلة التوجيه، لوجدناه يمر بثلاث مراحل أساسية:

المرحلة الأولى، يبدأ الوحي بتوجيه الخطاب العام إلى عموم الناس، فيدعوهم إلى الإيمان بالله وتوحيده بالعبادة أولًا، وهذه مرحلة تأسيسية في غاية الأهمية لما بعدها، إذ لا فائدة من أي خطاب آخر تكليفي أو تشريعي حتى لو ترتب عليه أعمال كالجبال ما لم يتم الاستجابة للخطاب الأول، ولذلك تتكرر الآيات الكريمات التي تخاطب

الناس بالإيمان قبل العمل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] لأن العمل بلا إيمان مصيره البوار والخسارة: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] فالإيمان أولًا، وهو الأصل العظيم بل أصل الأصول كلها في فهم الوجود وتفسير مآلاته ومنه ينطلق العمل والتكليف والنجاة في الدارين، وهذا من أهم أسباب التركيز عليه وتكرار التذكير به في جميع فصول هذا الكتاب.

المرحلة الثانية، خطاب التثبيت ورعاية النبتة الإيمانية الأولى وترسيخ قواعدها وتحصينها من الشرك والكفر والشك والإلحاد، وهذه جرعة تحصين وقائية ضرورية جدًّا، ومن شواهد أهميتها أن الرسل أنفسهم على الرغم من علو مقامهم الإيماني واصطفائهم الرباني، احتاجوا إلى هذا التذكير والتثبيت والتوجيه، وهذا الخطاب لا يمكن أن يسبق خطاب حسم مسألة الإيمان الأساسي بالوجود والغيبيات، سواء أكان ذلك في الدنيا (الرسل والوحي والمعجزات)، أو في الآخرة (عذاب القبر ونعيمه والبعث والحساب والميزان والصراط والجنة والنار ورؤية الله ﷻ)، ولعلك تدرك أخي القارئ الكريم، أن موضوع هذا الكتاب يدور حول هذه المرحلة، وهي رعاية هذا الإيمان الموجود أصلًا وتحصينه من الوساوس والملوثات الفكرية.

المرحلة الثالثة، على أساس ذلك الإيمان الراسخ والمحصن من الأخطار والشكوك يصدر بعد ذلك خطاب التكليف بالعبادات والشعائر والمعاملات ونظام الحياة ما يقتضي توجيه الخطاب الى المؤهلين لسماعه والأخذ به ممن هم في قمة التهيئة الإيمانية والفكرية والعقائدية والثقة بالله الذي ينتظرون لقاءه، انتظارًا يقينيًّا لا شائبة فيه ولا شك، بإيمان راسخ يجعلهم يتلقفون كل أمر، ويسارعون في تطبيقه، ويستبشرون به، دون أن يجدوا في أنفسهم أي حرج منه، ويحذرون من كل ما لا يرضيه فيجتنبونه، وهذا سيكون نعيمًا ممتعًا عند من وفقه ربه، فتدرج وفق هذه المراحل، التي ستجعل إيمانه راسخًا رسوخ الجبال الشامخات بفضل الله.

ومع أنه يرِد الفتور في العبادات بين الناس إلا أن أي خلل في المرحلتين الأوليين سيضاعف هذا البرود والثقل، بينما تكون العبادات لذيذة وجزءًا من سعادة الدنيا قبل الآخرة عند المؤمن الذي يرجو لقاء ربه موقنًا بذلك، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥- ٤٦] إن السر العظيم في الشوق إلى الطاعات هو هذا الخشوع المشار إليه في الآية، وهو سبب قول الحبيب ﷺ: «**يا بلالُ، أقمِ الصلاةَ، أرِحْنا بها**»(١).

*****

(١) الحديث رواه أبوداود (٤٩٨٥) وصححه الألباني عن سالم بن أبي الجعد أن النبي ﷺ قال: «**يا بلالُ، أقمِ الصلاةَ، أرِحْنا بها**».

obeikandl.com